من ذكريات عمر ...

بقلم مارون عبود

لا اظنني امنح عمر فاخوري وساماً بعد الموت إذ أكتب عنه هذه الكلمة المغمومة . لقد تناولت عمر في ما مضى جملة وتفاريق ، والعهد بآخر كلمة غير بعيد . كنت فيها مصوراً ومقارناً وباحثاً جهد الطاقة .

لست آسف على سنوات عجاف يعيشها عمر ويمشي فيها ادبه مشية السرطان في بدنه . لقد احسن القضاء صنعاً إذ جذب ثنيي الطَّوَل المرخى وأراح عمر من بقاء .

عليل في مكانين من الاسقام والدين

كما قال الجاحظ عن نفسه في آخر العمر .

عدت عمر اول مرة فخلتني امام مومياء تحدثني ، فارتعت ثم تجلدت لئلا أُريعه ، ولعله قد رأى ذلك في وجهي حتى قال لي : وجهك أصفر ! !

فأجبته : الدرب طويل والسُّلم عال ، وانا ابن ستين ، فاصبر علي قليلاً يعد جمالي الهارب ! !

فابتسم ابتسامة دميمة جداً وقال : تتهكم عليك إذا لم تجد واحداً غيرك ..

فقلت : ما وجدت ترياقاً لسمّ الحياة أشفى من الهزء بها وبناسها ..

★

رأيت اليرقان قد خلع على عمر كل ما عنده من زعفران ، فسألته عما به ، فأجاب بعد سكوت لاأجد له نعتاً : قلة العافية ، وعناء الحمية . الغمرة انجلت ، ولكن ..

قلت : دعنا من لكن . السلامة غنيمة يا أخي .

فأطرق ولم يجب ، وأطرقت مثله ألوم نفسي . وطال السكوت فقلت له : متى تعود الى عشّك ؟

فأجاب بهز شفتيه ، فعلمت ان لليرقان أحلافاً تشد أزره في حرب عمر . ثم مشى بيننا حديث متقطع موجع انصرفت على أثره بأمل قصير الخطى .

وبلغني ان عمر عاد من عند امه فهرعت لأهنئه بالسلامة ، فقالت لي الخادمة : معلمي في السبيتال .

فقلت : والست ؟

فأجابت : معه . فكملت طريقي الى المستشفى الأميركي فلم أستطع مقابلته . وتلفنت مراراً أسأل عن صحته فكان الجواب برداً وسلاماً .

ثم فصل بيني وبينه الصيف ، فما ضيعت اللبن فيه . وعاد عمر الى بيته فجئته مستكشفاً ، فرأيته لا حياً يرجى ولا ميتاً فيسلى . وتسقطت رأيه في نفسه فوجدته عريض الأمل كبير الرجاء . وقعدنا حيث اعتدنا ان نجلس فلم يشكُ عمر الداء ، بل شكا سوء الحال وقلة الوفاء ..

رجونا ان يكون « سفيراً احمر » فاذا به يمسي شهيداً اخضر .. وتباحثنا الغد ، فاذا بصاحبي متبرم ساخط . تعاون عسره ومرضه على هيكله الواهي . عاف عمله في الاذاعة انتصاراً لوطنه فذاعت القلّة في كيسه ، وخسر موردين : الاذاعة ومعهد الآداب ، واثقل دينه ظهره . لم يبق له غير جراية وظيفته الحكومية وهي لا تسد ثغرة العقاقير ، فاضطر الى بيع أعز المقتنى ، كانت مكتبته كبش المحرقة .

قال لي : غداً — وغداً بمعناها اللبناني الواسع — ادع كل هذا وانصرف الى العمل حراً .

فقلت : وما نويت ان تعمل ؟

قال : اعود الى المحاماة ، واعلّم اذا اقتضت الحال .

وحدقت اليه لعلي ادرك عمق يأسه المريح ، ومدى ألمه ، فرأيت بريق زجاجتيه قد تضاءل ، وزيت قنديله قد شحّ ، فقلت له : ياقليل العقل ! تعود الى المحاماة والتعليم بعدما خيّمت في الشاطىء يا ابا منذر !

فانفرجت شفتاه زهاء ميليمتر ولم يجب .. فقلت له : كفاك الله شرهما يا عزيزي ، فالذي لم يسهل عليك عمله شاباً يعتاص

عليك كهلا . اما سمعت قول المثل اللبناني: بعدما كبر وشاب حطّوه في الكتّاب ...

قال : ولمَ لا تقول شيخاً ؟

قلت : لكيلا اصير انا هرماً .

فضحك ضحكة فزّعتني.. ليس بينها وبين ضحكة الهيكل العظمي فرق كبير .

كان عمر قليل الكلام معافى ، فكيف به وقد هدّ حيله اليرقان ؟ وله كبد مقروحة لا يبيعه احد بها كبداً ليست بذات قروح . كان يعاني مرضاً كالنعاس يهدّ ولا يؤلم .

وثنيت عنان الحديث صوب النوادر والفكاهة فوجدته لا ينشط لها ، فعدت الى دار المكشوف احدث صديقه الشيخ عن الخطر العنيد .

★

وفي خطرة ثانية سألت الشيخ عن حال عمر فقال لي: بخير. كان هنا ، فقلت في قلبي : اذن ما ابعد الموت عنك يا مارون، ان صحّ عمر وسَلِم .

وذهبت اليه لاهنئه بالسلامة فوجدتني اقول له عفواً : لا تخدع نفسك ، توقّ ما استطعت . ما اراك كما اشتهي .

فأجاب : ما كنت يوماً في حياتي كما تروم انت .. احسّ انني اتحسن ، ولا ادري اذا كنت ابلغ المرتبة التي اجلس فيها امام قدح من عرقك المثلّث ، وخمرتك الدهرية .

فقلت : الله كريم .. ونظرت اليه فخلتني أرى ملامح رجل من وراء برقع ، وانني امام شبح يمثل عمر . وقرأت ان احدهم حمل الى عمر وسام الاستحقاق اللبناني فقلت : ولم هذه العجلة ؟ خامرني الريب فيها فسألت اصحابنا فقالوا لا ، ولكنني رجعت الى نفسي وقلت : انه فأل غير مليح ..

وعدت من (فرصة الربيع) ومعي لأخي عمر شيء من تلك التي شبه بها سليمان حب الشولمية في نشيد انشاده وما وضعت الأثقال لأفعل ، كما قال الأخطل عن قطار فلسطين ، حتى حمل إليّ الأثير صوت الأستاذ رئيف خوري يؤبن صديقنا عمر . فضربت المكتب بجمع يدي، وهجم الدمع الى الحدود، ولكنه لم يتجاوزها ، كعادته في المصائب الجلى .

ان حصة عمر محفوظة وستبقى مختومة على (السدّة) ، ولا ترى النور الا حين نشربها في عين كفاع مع اخوان عمر واصدقائه ، صانعين هذا لذكر كاتب عظيم مات . .

سنصنع هذا لذكر ركن من أركان هذه النهضة ، لذكر موظف عاش نظيف اليد والجيب . ما مد يده قط ولا اشتهى مقتنى غيره. عاش لا يفصل بينه وبين الناس ذاك التعنفص الذي يتنكر به بعض الأدباء والمتأدبين لأصحابهم متى وظفوا .

كان لاطائفياً ، ولكنه لم يتشدق يوماً بذم الطائفية كأصحابنا الأشد تعصباً من الكهان ثم يتفانون غيرة على الأوطان . كان عمر لا يصيح ولا يماحك ولا يطفيء سراجاً مشعلا ، فظل حيث هو لأنه لا يحسن المداجاة والمصانعة والمداهنة . لأنه أبيّ ثابت يزدري المنافقين والزنادقة الذين يكرون مع كل خيل مغيرة .

ترك ماترك من موارد رزق تعصباً لبلاده،وانتصاراً لها،ولم يشعر احد بما صنع، ولو فعل ذلك غيره لأقام الدنيا واقعدها .

عاف موارد رزقه وعاش مكثوراً عليه ليتضامن مع بلاده . فعل كل ذلك صامتاً لأنه من غير الذين يجعلون من الحبة قبة ومن القباء جبة ، لانه من غير الذين يجمزون كالقبابيط في حقل المراتب ، ويدعسون على جثث اصدقائهم ليرتقوا درجة ويكسبوا ليرة ورقاً .

ان هذا الاستطراد يجرني الى الكلام عن شخصيته . لم يكن عمر حسوداً ولا حقوداً . كان على ما فيه من شمم وإباء لا يزهى ولا يتكبر . كان محبا وإذا أبغض أعرض وازدرى ، وخرج بالصمت عن لا ونعم كصاحبة بشار .

كان فمه نظيفا لا يتبذل حتى في المجالس الخاصة التي كنا نعطي فيها المرح حقه . فكان يقابل تلك النكات الصارخة بربع ابتسامة ، ويشارك بكلمات كان يستعد لتأديتها استعداد طالب غير واثق من ذاكرته .

ولم يكن عمر عدواً في ثياب صديق ، ولم يكن من الذين يقتلون الرجل ويمشون في جنازته شاقين الجيوب حزناً على الفقيد الغالي . اما في الأدب فكان مؤمناً ولكنه غير ممارس الطقوس المنظمة .. يصلي لآلهة الفن بما يدور على لسانه .. لم يكن اديباً محترفاً بل كان اديباً هاوياً .كان كسميّه عمر، غفر الله لهما ، موكّلا بالجمال يتبعه . كان لعمر بن أبي ربيعة ، لذة النظر ، كما زعم ، وكانت لعمر الفاخوري لذة العمل الفني ؛ وما معشوقاته غير الكلمات اللواتي يؤلف بينهن ولا يجعلهن ضرائر .. اولع بالجديد ولم يتنكر للقديم فكان خير من كتب بلسان العرب من المحدثين .

قرأت ، بعد موته ، صفحة من انشائه فكدت انكرها لولم

في طريق الحياة

في طريقٍ * من لقى الانضاء والصرعى صُواهْ
وفضـاء لم تعانق ارضه يومـاً سماه
مفرغاً ترتجع الابصار حسرى عن مـداه
أضربُ الأرض طليحـاً تحت اعباء الحياه
وشبابٍ لم يمتع بالشبـاب .

★

أغتدي في زحمـة الأطماع مشدوهَ الرجاء
وأرود الودَّ في دنيا من الودّ خـلاء
مفردَ القلب وللقلب حنـين واشتهـاء
ظـامىء الروح وللنبع بأسماعي غناء
من وراء الغيب .. من خلف الحجاب .

★

أغتدي في مَهْمَهِ الدنيا وما لي من رفيقْ
غير روح سادر النجوى وقلب لا يفيق
كلـما أوغلتُ في القفر تراءت لي بروق
وامضاتٌ بأمانيّ كأطيـاف الشروق
بعـد ليل مدلهمٍّ وضبابْ .

★

طالما أدركتُ أن البرق خلاب جهـامْ
ولمحتُ القَطر مجبوساً بأطبـاق الغمام
غـير أني كلما راوَد اجفاني المنـام
قذفت بي ظامئات من رغـابي للأمام
ولقد ينجي من اليأس السراب .

★

أتخطى الصخر لا عزمـاً ولكني أسير
وعـلى السائر أن يمضي وإن شقَّ العبور
لم أعُد أسأل ما الجدوى ولا اين المصير
ما سؤالي ؟ وفؤاد القفر مسلوب الضمير
ليس يصغي لسؤال او جواب .

★

في طريقي كم تراءت لي جنانٌ وادعات
مثقلات الدَّوح بالأثمـار شتى ناضجات
يرفل الظل بها في مسرح جمٍّ الشّيات
ويميسُ النهر في أعطافهـا رحب الجهات
بين أفوافٍ وألفافٍ وغاب .

★

* قصيدة من الديوان الذي رفضه المجمع (راجع باب النشاط الثقافي في مصر) .

يثبت لي ذلك خطه . تسمعون، ولا شك، بالعملية القيصرية .. هكذا كان عمر يضع مواليده .

اثنان كانا مقلين مجيدين : جـبران وعمر ، وكلاهما كان صائغاً متأنقاً ، وقد عرفت ذلك اثناء اطلاعي على مخلفاتها التي لم تُبع كمخلفات الجيش .

كان عمر صريحاً لا يواري ولا يوارب ، وحسبك منه قوله: « فاذا بما يفيض من عبقرية جبران يروي بطاح المستقبل ، بينما عبقرية شوقي مسفوحة على هضاب الماضي . شـوقي من الشرق وجبران من الغرب ، فلا يلتقيان الى يوم القيامة . ويغلب على الظن ان هذا الشرق سيظل كامرأة لوط ، في موكب الزمان ناظراً الى وراء فيمسخه الله صنماً من ملح ، اي من دمـوع جوامد ، على حد قول اندره جيد الذي يزعم ان لوطاً ضاجع ابنتيه في احدى منعطفات التاريخ، وهو ناظر الى المستقبل..)

اجل ،كان لعمر فصول ، ولكنها روائع حقاً لانها ملك صاحبها ، وعليها ماركته المسجلة .

واخيراً مات هذا النسر وعينه الى القمة ، لم ينظر قط الى الاوحال التي يتمرغ بها بعض زرازير الادب . لا اقول ان خسارة الأدب العربي لا تقـدر ولا تعوض ، فحسب الذرية ما تركه لها عمر من نماذج ، وقد لا يصنع اجمل منها لو عمّر كمتوشالح ..

مارون عبود